معضلة فنية معقدة.. متى تسمح لنا الموضة بثياب دون كيّ

الإبداع الإنساني يتجه نحو التعقيد باسم التبسيط وإلى التبسيط بغية التعقيد

هل تتجه الحضارة نحو التبسيط أم التعقيد

يرى الكثيرون أن اشتغال المبدع المتواصل على عمله الإبداعي سواء أكان أدبا أم فنا، يفقده دفقته الأولى الصادقة ويحوله إلى صناعة ثقيلة قد لا يستسيغها المتلقي، إذ تفقد وهجها وحرارة مولدها، فيما يرى آخرون أن الاشتغال ضرورة ملحة لتجاوز هنات الولادة الأولى وتشذيب العمل الإبداعي باستمرار لتحقيق الاكتمال، ولكن هل ينشد الفن والإبداع عموما الكمال؟

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

يتسع الجدل - ولا يزال - منذ القديم، بين أنصار "النسخة الأولى" من الإنتاج الكتابي، والفني عموما، وبين المنادين بضرورة الاشتغال على القصيدة والرواية والمنحوتة وغيرها، قبل دخولها أسواق العرض والنشر.

وعلى مستوى الشعر العربي القديم، برز هذا الجدال بين الذين يأخذون بالسليقة والفطرة في القصيدة، ويعتبرون ذلك أثمن ما فيها وأكثره صدقية وطزاجة، وبين من سمتهم العرب بـ"عبيد الشعر"، وهم أولئك الذين يأخذون وقتهم الطويل في التنقيح والتبديل والتشذيب. ويتزعم هذه الفئة الشاعر أوس بن حجر، الذي كان زهير بن أبي سلمى من أخلص أتباعه وتلاميذه، حتى سميت قصائده بالحوليات، لكثرة اشتغاله عليها.

النقصان الفني

هو خلاف يمتد إلى عصر الملاحم لدى الإغريق والرومان، وامتد حتى عصر النهضة في فنون النحت والتصوير، وذلك لحدة التصادم بين النظريتين، لكن النزوع نحو إنتاج الفن في هيئته الأولى، كثيرا ما يكسر القواعد الاتباعية والضوابط الكلاسيكية ليطل برأسه عند كل عصر ثم يعود فيختفي. وهكذا دواليك إلى عصرنا الحالي.

"الروتشة" عمل يرافق كل إنتاج فني ويسبق عرضه في شتى المجالات، لكن ماذا لو تصبح هذه "الروتشة" نفسها، مكتملة في عدم وجودها أي أن إخراج الأثر الفني في هيئته الأولى جزء من هذا التنقيح الافتراضي، والتشذيب الذي "كان يجب أن يكون".

هذا الوعي بضرورة الهيئة التي يمكن أن يكون عليها العمل الفني، أصبح في حد ذاته، موطن جدل وخلافا يمكن أن نلحظه في الفنون الحديثة، طالت حتى المعمار الذي بتنا نشاهده في مواضع كثيرة على شكل أعمال لم تكتمل. في حين أنها قد اكتملت في أذهان أصحابها عبر إعطائهم الانطباع بأنها لم تكتمل.

الأمثلة على هذا كثيرة ومتنوعة في الكثير من التحف المعمارية في عدد كبير من بلدان العالم على غرار هيكل غادي الشهير في برشلونة، كنيسة برلين، مركز بومبيدو في باريس.

ليس على العمل الفني أن يكتمل

الأمر طال منجزات فنية كثيرة توحي للناظر بعدم اكتمالها أو بشيء من النقص في "أناقتها" كم يغادر بيته غير ممشط الشعر أو غير مكوي الثياب.

"صحيح.. متى تدرج وتشيع موضة ارتداء الثياب دون كيّ؟"، أمنية تسكن كل "الكسالى" مثلي، من أولئك الذين لا يطيقون الوقوف والانحناء أمام "جحش الكيّ" كل صباح.

في اتجاه التبسيط

هذا النزوع الحر نحو تناول الأشياء في هيئتها الأولى دون تصويب أو تشذيب أو تهذيب، يطرح سؤالا مزمنا وهو: هل تتجه الحضارة - وبكل ما أوتيت من فنون العيش والمعرفة والثقافة - نحو التبسيط أم التعقيد؟

مهلا، التبسيط هنا لا يعني الاستسهال والتسطيح، كما أن التعقيد قد يعني ترويض العقل وأخذه نحو متعة المغامرة والاكتشاف، وليس على سبيل مسك الأذن اليمنى باليد اليسرى كما يقال.

ويُعد استنطاق قيم جمالية واستنهاض أبعاد معرفية من خلال الإبقاء على الهيئة الأولى للأشياء منهجا مشى فيه العديد من الفنانين والمبدعين منذ عقود، لكنه لم يصل إلى مرحلة الحسم القاطع. وظلت عمليات التحضير والإعداد والتهيئة، طابعا يلتصق بالإنتاج الإبداعي على مختلف أنواعه وأجناسه.

وكما كانت "موتيفات" و"اسكتشات" ليوناردو دي فانتشي، ذات قيمة فنية، تباع وتشترى دون الحاجة لإكمالها، فإن عارضين وناشرين كثيرين اهتدوا إلى هذا الأسلوب التسويقي فدأبوا إلى إطلاع الجمهور العريض على مخطوطات وبروفات، تصورات بدائية لمشاريع أعمال إبداعية.

لاقى هذا الأسلوب استحسانا لدى عشاق الفن البدائي (لارت نايف)، على اعتباره أكثر صدقية وبعيدا عن التكلف والروتشة حتى أمسى الأمر صناعة في حدّ ذاتها، تشبه في أحيان كثيرة، تعتيق العملة المزورة والقطع الأثرية المقلدة قبل بيعها للسياح.

وانطلاقا من هذا المفهوم المزعوم، يصبح ارتداء الثياب المجعلكة (غير المكوية) ضربا من الموضة الرائجة، وشكلا من أشكال كسر الروتين، حتى وإن كان صاحب تلك الثياب يمتلك مكواة وقادرا على استئجار مكوجيّ (كواء).

هكذا تصبح "جعلكة" الثياب قبل ارتدائها موضة كما ظهر الجينز الكاحت، باهت اللون في بداياته وخصصت له المصانع لأجل ذلك الغرض.

فلسفة تسويق هذا النوع من الإنتاج الفني جاهزة باسم البساطة والبعد عن التكلف. إنها أشبه بالتغريب وكسر الجدار الرابع في مسرح برتولد بريخت أو فتح كواليس المطابخ أمام زبائن المطاعم أو حتى قطع التذاكر لحضور التدريبات الرياضية أو البروفات المسرحية لدى فريق برشلونة الإسباني ومسرح بيتر بروك الإنجليزي.

التبسيط في هذه الحالة يمر عن طريق التعقيد والتصنع فيمسي مثل الغني الذي يصر على تصميم منزله على شكل كوخ فقير، مع مدفئة من حطب، في الوقت الذي بإمكانه التمتع بكل وسائل الراحة التي في حوزته.

> الخلاف بين الاشتغال على الأثر وتركه على هيئته البكر يمتد منذ عصر الملاحم لدى الإغريق والرومان إلى اليوم

لكن الأمر الذي جعلنا نتمنى ظهور موضة "تسمح" بارتداء ثياب غير مكوية، هو الكسل ولا شيء غير الكسل. ثم تأتي الموضة لتبرر لنا هذا الكسل وتبحث في الذرائع والفلسفات مثل قصص الأزرار والمناديل في السترات الرجالية والقفازات والكعوب العالية لدى النساء.. والتي قيل إنها ابتدعت من أجل امرأة قصيرة تريد أن تقبّل حبيبها ذي القامة الطويلة.

أما السؤال الأهم في هذه المعادلة التي تبدو متوهة هو من يلاحق الآخر: الموضة والإبداع أم الحاجة والضرورة؟

الحقيقة أن هناك نوعا من التواطؤ بين الاثنين، ويكاد يستحيل إثبات أقدمية واحد على الآخر بسهولة، ذلك أن العقل البشري وثاب بطبعه، ودائم الميل إلى التمويه ومحو الأثر في لعبة ثنائية الخفاء والتجلي.

خلاصة القول إن الإبداع الإنساني يتجه نحو التعقيد باسم التبسيط، وللتبسيط بغاية التعقيد، فللوصول إلى نغمة متناهية العذوبة والصفاء، ينبغي على عازف الكمان أن يمر بتدريبات متشابكة ومعقدة إلى أبعد حد في وضع أصابعه على الآلة كما كان يقول شيطان الكمان نيكولو باغنيني، أواخر القرن الثامن عشر.

ارتداء ثياب مكوية جاءت بعد معاناة طويلة مع "الثياب المجعلكة"، وكذلك العكس.. وقس على ذلك في الشعر والمسرح والرقص والموسيقى.

كتاب يرصد ثلاثة قرون من شعر الملحون في سلا

مكناس (المغرب) – كتاب "شيوخ الملحون السلاويون جواهر من ذاكرة التراث المغربي المكنون"، من تأليف الباحث المغربي نورالدين شماس وهو الأول من نوعه على صعيد المغرب الذي يهتم بالترجمة لشريحة من أدباء مدينة سلا وإبداعاتهم، وهم شعراء الملحون، من خلاله يوثق المؤلف مساراتهم الفكرية والثقافية والإبداعية، كما يسلط الضوء على جوانب مهمة من حياتهم، راصدا ذكرهم وآثارهم عند جل من ترجم لهم.

وقد جاء الكتاب، الصادر أخيرا عن مطبعة سجلماسة بمكناس بتقديم عبدالمجيد فنيش، وفق منهجية تكاملية تجمع بين التوثيق والتحقيق، والعرض الكرنولوجي، والتأطير التاريخي والتنقيب الميداني في ذاكرة الذين لا زالوا على قيد الحياة من الحُفّاظ والمهتمين.

ولشعر الملحون مكانة كبرى في المغرب، وهو من المواضيع التي يتذوقها المغاربة ويقبلون عليها وذلك لأنه التعبير الصادق من مشاعرهم وإحساساتهم وهو ديوان حياتهم وسجل عوائدهم وحضارتهم وهو يحتوي على روائع تستقي من كل فنون الشعر والأدب والحكايات والتواريخ.

والكتاب رصد لثلاثة قرون من الإبداع السلاوي في شعر الملحون قسمه مؤلفه، بعد مقدمة تأطيرية عامة، أوضح فيها الأهداف المبتغاة من هذه الدراسة، والمنهجية التي اعتمدها، والمرجعيات التي استند إليها في جمع موادها، إلى فصلين.

ويعتقد البعض أن تسمية شعر الملحون يعود إلى اللحن، أي الخطأ في النحو، ولكن ذلك جاء من توافق الحروف بين معنى الغلط ومعنى النغمة، فالملحون هو الشعر الذي يلحن ويغنى، لذا فالملحون هو الشعر الذي ينظم في مختلف اللهجات العربية ويتغنى به.

عرفت مختلف أقطار الوطن العربي الشعر الملحون، لكن مع تغير تسمياته فنجده في المشرق يسمى بالشعر النبطي وفي تونس شعر الملزومة، ولا يكاد يخلو قطر من هذا الأدب الشعبي الذي اختزن وجدان الشعوب وهواجسها وأفكارها وواكب حتى نضالاتها ضد الاستعمار وغيره من الأطوار التي رافق فيها هذا الشعر الناس في أفراحهم وأتراحهم ومختلف حالاتهم.

وقد تميز المغاربة بشعر الملحون وقدموا فيه منجزا هاما ما زال متواصلا في تراكمه إلى غاية اليوم، وإن كانت لا تخلو منطقة مغربية من إنجاب شعراء لهذا النمط الشعري، إلا أن بعض النواحي والمدن تعتبر مراكز هامة للملحون وإذا كانت مراكش وفاس برزتا في هذا الميدان فإن أزمور ومكناس وسلا من أخصب البقاع لظهور شعراء الملحون.

ولا يخفى لمتتبع تاريخ هذا الشعر تميز شعراء سلا الذين ضاع الكثير من إنتاجهم وهم في هذا كأكثر الشعراء الآخرين باستثناء جماعة قليلة، وقد اعتبرت سلا عاصمة الثقافية في ميدان الملحون.

وشعر الملحون تقع تأديته على وقع الآلات الوترية والإيقاعية أيضا، تقوله الأصوات الشجية الطروبة بما فيه من قصائد ينحو أغلبها إلى أغراض المدح والغزل.

ففن الملحون في قيمته الفنية هو فن شعري إنشادي غنائي متميز، وقد يكفي السامع سماعه في البحث عن بواعث ومظاهر قيمته الفنية وكوامنه الجمالية، إذا كان شعور جل أو كل المتلقين، وإن من الدواعي الأكيدة عند الباحث في فن الملحون رصده تلك البواعث والتجليات، وتفحصها بعناية تامة حتى نكتشف أسرار قوة تأثيرها الفني في السامع المتذوق.

> الكتاب يعتبر مرجعا هاما للباحثين في تاريخ تراث شعر الملحون عموما والسلاوي منه على وجه الخصوص

ويعتبر الملحون كلاما موزونا تصاحبه موسيقى تقليدية مغربية محلية تعتمد آلة "السويسي" و"الربابة" الوتريتين، إضافة إلى الآلة الإيقاعية التقليدية التي تعرف في المغرب بـ"الطعريجة"، فترى المنشدين جماعة يرددون "اللازمة"، وهي الجملة الموحدة التي يحافظ العازفون على الآلات الموسيقية على ترديدها بصوت جماعي موحد، رغم أنه تطور مع شعراء سلا.

وفي رصد لتحولات هذا الفن خصص شماس أول مبحث في كتابه بعنوان "شعراء الملحون السلاويون خلال صابة لشياخ" وهي الفترة الممتدة ما بين عهد السلطان عبدالله، إلى عهد السلطان محمد بن عبدالرحمان بن هشام. في حين جاء الفصل الثاني بعنوان "شعراء الملحون السلاويون المجددون"، وهي الفترة الممتدة بين عهد الحسن الأول وعهد الملك محمد السادس.

وقد تضمن كل فصل مجموعة من المراصد، خصص كل منها لعلم من أعلام الملحون السلاويين. وهكذا ضم الفصل الأول ثلاثة عشر مرصدا، والثاني تسعة وعشرين مرصدا، وكل مرصد من هذه المراصد به ترجمة مستفيضة للشاعر وببليوغرافيا لإنتاجه الشعري، وأخرى لقصائده المسجلة بدار الإذاعة مع أرقام تسجيلها، وبعض النمادج من كتاباتهم بخط يدهم.

والكتاب يعتبر مرجعا للباحثين في تاريخ تراث شعر الملحون عموما، والسلاوي منه على وجه الخصوص، وإضافة نوعية في مجال الكشف عن كنوز الثقافة المغربية الأصيلة، في علاقة مع محيطيها الاجتماعي والسياسي، تحت رعاية ودعم المغرب لهم، كما وثق الباحث لهذا الفن الشعري العريق عبر العديد من الشواهد والشهادات.

فن شعري عريق لصيق بوجدان المغاربة